«الزمن الملحمي» دافعاً رئيساً، وأصيلاً، لانتقال الرواية الكنفانية من الدرامية الى الملحمية؟ إن «أم سعد» كرواية ملحمية مفتوحة، تتجاوب مع واقع ملحمي مفتوح، تظل، حتى هذه اللحظة من تاريخنا، وحتى ينتهي التاريخ أو ينغلق تاريخنا قابلة لاحتضان ايقاع الخطوات الفلسطينية في رحلتها الملحمية باتجاه الوطن، وفيه، وهي تدعونا، باستمرار، لأن نرى الى الدّالية التي برعمت وأن نتعهدها بالسّقاية، وبكل ما يجعلها قادرة على ترسيخ جذورها في الارض، وعلى النمو والاخضرار، ومواصلة الصعود، إنها تدعونا، الآن، الى التأمل في مسار الرحلة، والى قراءة ما أُجري ويجرى، وتحثنا على مواصلة الخطو كي نقطف ثمار الدّالية التي برعمت قبل ربع قرن أو يزيد.

على هذا النحو من التواشج العميق بين أسئلة الروايات واجاباتها، وللأسباب والعوامل التي بيّناها، تبدو كل واحدة من الروايات الأربع وهي تؤسس، عبر شفرتها، وجودها الخاص، فيما تشير، في الوقت ذاته، الى احتمال روائي جديد، آتٍ، يقوم فور انجازه، بإثراء دلالي للرواية السابقة، وبتطوير للسياق الروائي وإعادة بنينةٍ له، وفي هذا، وفي التواصل والتفاعل الجدلي الخلّاق، وفي مواكبة الرواية الكنفانية لمأساوية الواقع الفلسطيني؛ لدراميته التي عكستها الروايات الثلاث الاولى وهي تصوغ حكايات أفراد يواجهون أقدارهم. وللحميته التي عكستها «أم سعد» وهي تصوغ مسيرة شعب باشر في إعادة صوغ هويته، وعثر على جدارته في الحياة، وعلى حضوره في العالم، في كل ما سبق، تكمن بالضبط، خصوصية السياق الروائي الذي حفرته الرواية الكنفانية لنفسها، وفي هذه الخصوصية تكمن أهمية الرواية الكنفانية في صلتها بمقولتي الهوية والمنفى، أو لنقل: «القومية والمنفى»، على حد تعبير ادوارد سعيد، وعلى ما بين الهوية والقومية من تمايز، فالثانية حاضنة الاولى، يقول ادوارد سعيد: «المنفى والقومية... لا يمكن فصلهما أبداً. وفضلاً عن ذلك فإن المصطلحين ينحدران من أكثر المشاعر الجماعية جماعية، ومن أكثر التجارب الخصوصية خصوصية،... ولنأخذ السرد الروائي مثالاً لما أحاول أن أصف، فكما اقترحت من قبل نجد كل شعب أو أمة تبني وعيها الجماعي بذاتها حول رواية قومية تفسر ما نفعله «نحن» وكيف صرنا ما «نحن» عليه، وإلى أين نتجه «نحن». وبهذا المعنى فالسرد الروائي في قول فردريك جيمسون هو عملية اجتماعية رمزية مركزية، وهي ليست في متناول كل فرد من أفـراد الأمـة بتفاصيلها»[٢٤]. وفي هذه الصلة العميقة بين مقولات الوطن، الهوية، المنفى، السرد الروائي، الوعي القائم والممكن، والرؤية للعالم التي تعاملنا معها في الصفحات السابقة، وهي المقولات التي تتفاعل معاً في صوغ السياق الخاص بالرواية الكنفانية، عبر حيازتها على معادلاتها الموضوعية الفنية، يكمن مغزى دخولنا الى قراءة أي من تمظهرات المكان الروائي في الرواية الكنفانية.

المكان الروائي: آليات انبثاقه، بنيته، ومجالاته

إن قطبي التضاد: الوطن والمنفى، في مفاهيمها المتغايرة، والمتحولة عبر ما يقع بينهما من جدل يحركه سؤال الهوية والانتماء، وسؤال مواجهة الضرورات الحياتية وشروط الحياة القاسية الناجمة عن الاقتـلاع من الوطن، والانقـذاف في المنافي، أو البقاء في الوطن تحت شروط ضارية هي شروط الاحتلال، هما ـ أي الوطن والمنفى ـ القطبان المتضادان اللذان تتحرك بينهما الشخصيات الروائية بحثاً عن إجابات أسئلتها؛ وهما اللذان يعطيان للسرد الروائي علّة وجوده وآليات انبثاقه، وهويته، وهمـا، تالياً، وعبر السرد، اللذان يحددان مواقع الرؤية، وطبيعة الرؤى للعالم، التي تحمل الوعي القائم وتؤشر، دائماً، الى الوعي الممكن، الذي نعود فنجده وعياً قائماً يشي بوعي ممكن آخر تنهض عليه الرواية التالية كوعي قائم... وهكذا.